

مقاومة الأمير عبد القادر (1832-1847)

مقدمة:

تعتبر مقاومة الأمير عبد القادر نموذجا رائدا للمقاومة المسلحة الوطنية المنظمة، شملت مناطق واسعة من البلاد، وحققت إنجازات عسكرية و سياسية هامة، فما هي الظروف المحيطة بظهورها؟ و فيم تمثلت أهم المكاسب التي حققتها؟ و ما هي سياسة فرنسا في مواجهتها؟

1- ظروف مبايعة الأمير عبد القادر بالإمارة:

بعدما نجح الغزاة الفرنسيون في الإستيلاء على العاصمة 1830م وانهيار الحكومة المركزية، تطلّعوا لاحتلال القطاع الغربي على غرار القطاع الشرقي، وفور دخولهم مدينة وهران شهر أوت 1830م شعر بايها حسن (1816-1831) -آخر بايات بايلك الغرب الجزائري بمدى خطورة الوضع على شخصه وعائلته، خاصة بعد تأكده بأنّ حرسه التركي أصبح غير قادر على الدفاع عنه، وأنه لم يعد مرغوبا فيه من طرف سكان العرب لهذا الإقليم، الذين عانوا اضطهاده، سيما وأنه سبق له و أن فرض الإقامة الجبرية على (محي الدين) وابنه (الأمير عبد لقادر) خلال فترة (1823-1825)، خوفا من أن يقوي عضده، فمهدد السلطة التركية في هذا الإقليم.

ومنذ ذلك التاريخ ساءت العلاقة بين الطرفين، وتأكّد ذلك لما طلب هذا الباي الحماية من أسرة (محي الدين) سنة 1830م، إلا أنّ هذا الأخير رفض الإستجابة لطلبه، فما كان على هذا الباي إلا الإستسلام وتسليم مفاتيح مدينة وهران لرجال الحملة الفرنسية برئاسة القائد الفرنسي (بوير-Boyer) مقابل الحصول على الأمان، ليرحل بعد ذلك إلى الإسكندرية للاستقرار بها، تاركا الإقليم في حالة فوضى يواجه العدو بدون قيادة و لا إدارة و لا جيش.

ازدادت الفوضى بشكل مريب في كافة إقليم الغرب إثر دخول الجيش الفرنسي إلى مدينة وهران و اشتباكه مع القبائل العربية المدافعة عن الإقليم، الذي كان بحاجة إلى زعيم يقود و ينظم المقاومة، لذلك اتصل أعيان القبائل و علماءهم بالشيخ محي الدين الذي عرف عنه السمعة الطيبة، و عرضوا عليه تولي هذه المهمة، لكن هذا الأخير طلب منهم الاتصال بالسلطان المغربي مولاي عبد الرحمن (1822-1851) لعرض عليه المبادرة، باعتباره يمثل أقرب سلطة إسلامية شرعية بالمنطقة تتوفر على الإمكانيات اللازمة للوقوف في وجه فرنسا،

و نتيجة لذلك توجه وفد من الأعيان (كبار العلماء) إلى فاس و طلب من السلطان تعيين خليفة له لحكم بايليك الغرب و تنظيم المقاومة ضد العدو، فاستجاب للطلب و عين ابن عمه (علي بن سليمان) خليفة له على تلمسان، إلا أنّ فرنسا احتجت بشدة على هذا الموقف، و وجهت إنذارا للسلطان المغربي، الذي اضطرّ

تحت التهديد إلى التخلي عن تلمسان التي احتلها في 1830م، وأمر ابن عمه بمغادرتها، و بذلت عمت الفوضى و الاضطراب في الإقليم الغربي من جديد.

في ظل هذه الظروف اتجهت أنظار الأعيان والعلماء من جديد نحو الشيخ محي الدين لقيادة البلاد والقيام بأمور الجهاد، إلا أنّ هذه الأخير اقترح ابنه عبد القادر، لتولي الإمارة لما يتحلّى به من كفاءة وأخلاق فاضلة وأهلية في القيادة، وقد حظي اقتراحه هذا بالقبول من طرف أعيان القبائل و علماء المنطقة، وبهذه الكيفية تمت مبايعة عبد القادر بن محي الدين (1808-1883) أميرا وحامل لواء المقاومة في يوم 3 رجب 1248 هـ/ 27 نوفمبر 1832م -البيعة الأولى الخاصة- وذلك تحت شجرة الدردارة بوادي فروجة، الواقع بسهل غريس، ثم عقدت له البيعة الثانية (العامة) بقصر الإمارة بمعسكر، من طرف وفود معظم قبائل الجهة الغربية من البلاد، و بحضور العلماء يوم 13 رمضان 1248 هـ/ 04 فيفري 1833م، وتعد هذه البيعة، البداية الفعلية لظهور أول دولة جزائرية حديثة. بعد ذلك شرع الأمير عبد القادر في توحيد القبائل و تنظيم دولته متخذاً من معسكر عاصمة له، ثم أخذ يقود المقاومة المسلحة ضدّ فرنسا الاستعمارية.

2-مراحل المقاومة:

1.2. المرحلة الأولى: انطلاق المقاومة وقوتها(1832-1837):

اهتم الأمير بتنظيم الجيش كأداة فعالة تمكنه من وضع حدّ للتوسع الفرنسي في الغرب الجزائري، من خلال تركيزه على فرق المدفعية وحرب العصابات، وإخضاع الجيش لقوانين عسكرية صارمة أساسها الانضباط وتقسيم الجيش إلى وحدات قتالية مختلفة.

برز الأمير عبد القادر من خلال المقاومة التي قادها في البداية الأولى للاحتلال بدءاً من واقعة خنق النطاح الأولى بالقرب من وهران (عند أسوار المدينة) في 29 ماي 1832م، بقيادة والده (محي الدين)، حيث كان ضمن الصفوف الأولى المقاتلة في هذه المعركة، كما شارك في معركة خنق النطاح الثانية في يوم 4 جوان 1832م، والتي قادها الأمير بنفسه نيابة عن والده، و حارب أيضا في معارك أخرى خلال شهري سبتمبر و أكتوبر من عام 1832، دفاعا عن مدينة وهران، و أبلى بلاء حسنا في تلك المعارك، مما جعله محل إعجاب من قبل المقاومين و أعيان قبائل المنطقة.

و بعد مبايعته بالإمارة، نظم المقاومة العسكرية باستخدام عنصر المباغته في الهجوم على جيوش الاحتلال الفرنسي واعتماد أسلوب حرب العصابات، واستطاع محاصرة قوات العدو وإجبارها على المكوث في وهران وأرزيو ومستغانم داخل القلاع والحصون، وبعد فشل القائد (بواير) في فك الحصار عُزل، وعُيّن مكانه (دميشيل Desmichels)، الذي عجز بدوره عن التصدي للأمير عبد القادر فطلب الصلح، وعقد

معاهدة عرفت باسمه- ديميشال -مع الأمير في 26 فيفري 1834، من أهم ما تضمنته:وقف القتال، و حرية التجارة، و إطلاق سراح الأسرى من الجانبين، و احترام الدين الإسلامي و عادات و تقاليد الجزائريين المسلمين، و الاعتراف المتبادل بسلطة الطرفين.

حلل المؤرخ الجزائري سعد الله هذه المعاهدة، مبرزاً المكاسب التي حققها الأمير من ورائها، بقوله: ((...و قد اعترفت المعاهدة بسلطة الأمير على المدن المذكورة (تلمسان، المدية ومليانة)، و بقيادته كقوة وحيدة في المنطقة، بالإضافة إلى حصوله على حق التمثيل الدبلوماسي و حرية التجارة و شراء الأسلحة، و اقتداء الأسرى، و غير ذلك. و اغتنم الأمير فرصة السلام فأعاد تنظيم دولته بالاعتماد أكثر على العنصر الكفاء، لاسيما رجال العلم و الدين، واستجلب من الأوروبيين من يدرب جيشه النظامي، و أقام صناعات حربية و راسل الدول الأجنبية مثل بريطانيا و إسبانيا عارضاً عليها مقترحات للتعاون ضد فرنسا، و حصن تجارته مع المغرب و طنجة و جبل طارق و سبتة، و أعاد إلى جناحيه القبائل النافرة أو الواقعة تحت طائلة العدو...)) (الحركة الوطنية ج1، ص175)

و من جهته اعتبر دي ميشال المعاهدة نصراً له، لإعتقاده أن إقليم وهران قد وقع برمته تحت سيطرته تبعاً للالتزامات الأمير بالمعاهدة. امتعضت فرنسا من تزايد نفوذ الأمير و امتداده إلى إقليم التيطري، و أقدمت على عزل ديميشال عن قيادة وهران في 15 جانفي 1835، و عينت (تريزيل Trézel) خلفاً له، الذي قام بنقض المعاهدة بعدما وفر الحماية لقبائل الزمالة و الدوائر بزعامة مصطفى بن إسماعيل المتمردة على الأمير، عندئذ تجدد القتال بين الطرفين وانتصر الأمير على تريزيل في معركة السيق 26 جوان 1835م ومعركة المقطع (شرق أرزيو) في 27 جوان 1835م، فزاد النصر المحقق في هذه المعركة من سمعة الأمير و نفوذه و اسكت به أصوات خصومه، و انتشر صدهاء في جميع المدن الجزائرية و حتى في المغرب وتونس و فرنسا و تركيا.

و من جهة أخرى دفعت الهزيمة بفرنسا إلى عزل تريزيل و تعويضه بـ:لاموريسيار Lamouricière، و قامت أيضاً بتعيين المارشال (كلوزيل Clauzel) والياً عاماً على الجزائر خلفاً لـ:ديلون الفاشل في سياسته حيال مقاومة الأمير، حاول الحاكم الجديد تشديد الخناق على مقاومة الأمير في الغرب الجزائري، فشنّ عدّة غارات ناجحة واستولى على مدينة معسكر في ديسمبر 1835م بعد أن أمر الأمير بإخلائها، ثم تلمسان في جانفي 1836م، وأدّت هذه الهزائم إلى تحوّل في موقف بعض زعماء القبائل الذين التحقوا بالمعسكر الفرنسي، أمثال: (ابن المخفي) و(الغماري) و(مصطفى بن إسماعيل)، لكن سرعان ما استرجعت مقاومة الأمير قوتها وتمكّنت من مهاجمة الجيوش الفرنسية وحققت انتصارات هامة في معركة وادي السكاك (قرب تلمسان) في 6 جويلية 1836م، الأمر الذي دفع بالقائد الجديد الجنرال (بيجو Bugeaud) إلى مراسلة

الأمير، عارضاً عليه الصلح، فاستجاب الأمير لذلك و تم التوقيع على معاهدة التافنة في 1837/05/30م، من أهم ما جاء فيها:

- 1- اعتراف الأمير بالسلطة الفرنسية على مدن وهران، مستغانم، أرزيو، و مدينة الجزائر و سهل متيجة
- 2- اعتراف فرنسا بسلطة الأمير على إقليمي وهران و التيطري، و القسم الذي لم يدخل تحت نفوذ فرنسا في إقليم الجزائر من الناحية الشرقية
- 3- يدفع الأمير للفرنسيين بوهـران مقداراً من الحبوب و عدداً من الأبقار
- 4- يمكن للأمير أن يشتري ما يحتاجه من الأسلحة و الذخائر
- 5- تتخلى فرنسا للأمير عن مدينة تلمسان و مرسى رشغون
- 6- حرية التجارة بين الطرفين
- 7- يعين لكل من فرنسا و الأمير ممثلين عنهما في مدن الطرف الآخر لرعاية مصالحهما

في قراءته النقدية للمعاهدة، بين أبو القاسم سعد الله المكاسب التي حققها الأمير بموجبها، في مقدمتها السلام الذي كان بحاجة إليه، و اعتراف فرنسا بسلطته و سيادته على معظم أجزاء البلاد باستثناء المدن الساحلية، و بقوته الوحيدة في الجزائر للتعامل معه، و مكنته أيضاً من التعامل مع الفرنسيين في المجال القنصلي و التجاري. و على نقيض من ذلك، رأى أن المعاهدة كانت عبارة عن هدنة مؤقتة بالنسبة لفرنسا، كانت تبحث عنها، حتى تتفرغ لحملتها العسكرية الثانية على قسنطينة 1837، و هو ما تحقق، و من ثم كان للمعاهدة تداعيات خطيرة على مقاومة أحمد باي

2.2. المرحلة الثانية: تنظيم دولة الأمير عبد القادر (1837-1839):

بعدما استقر الوضع للأمير عبد القادر، أخذ هذا الأخير يقدم على بناء دولة جزائرية حديثة، وفق تنظيمات عصرية، فمن الناحية الإدارية قسمها إلى ثمان أقاليم، و على رأس كل إقليم خليفة له، على النحو الآتي:

- معسكر (العاصمة الأولى ثم تاقدمت، ثم الزمالة): محمد بن فريجة المهاجي ثم خلفه الحاج مصطفى بن أحمد التهامي

- تلمسان: محمد البوحميدي الولهاصي

- مليانة: محي الدين بن علال القليعي، ثم خلفه محمد بن علال

- المدية: مصطفى بن محي الدين ثم خلفه محمد البركاني

- مجانة (سطيف): محمد بن عبد السلام، ثم محمد بن الخروبي و من بعده محمد بن عمر العيساوي

- الصحراء الغربية (الأغواط): الحاج العربي بن الحاج عيسى ثم قدور بن عبد الباقي

-برج حمزة(البويرة): أحمد الطيب بن سالم

-الزيبان(بسكرة): فرحات بن سعيد ،ثم حسين بن عزوز،ثم محمد بن الصغير بن عبد الرحمان بن أحمد بن الحاج

و قسم كل إقليم إلى نواحي،على رأس كل ناحية آغا، والناحية مقسمة أيضا إلى مجموعة أعراش أو قبائل ، على رأس كل واحدة منها قائد ،وقسمت كل قبيلة أو عشيرة إلى فرق ،على رأس كل فرقة شيخ.

سبق للأمير و ان شكل حكومته بداية من سنة 1833، و اختار لها رجالا أكفاء لتولي المهام الوزارية المختلفة، كما أنشأ مجلسا للشورى ضم إحدى عشر عضوا ،تم اختيارهم من العلماء و الأعيان،ترأسه قاضي القضاة أحمد بن الهاشمي المراهي،و نظم مالية الدولة ،و اهتم بتنظيم القضاء الذي استمد أحكامه من الشريعة الإسلامية، إدراكا لأهميته في ضبط الأمن و الاستقرار، و قسم القضاة إلى قضاة مدنيين و عسكريين.واهتم بتنظيم الجيش و تسليحه،و أقام في هذا الصدد مصانع للأسلحة و البارود في مليانة،و تلمسان، و معسكر، و المدية،و شيد أيضا الحصون، منها:حصن سبدو في جنوب تلمسان،و حصن سعيدة.و حصن تازا(تسمسيلت)، و حصن تاقدمت، و حصن بوغار(المدية).و اعتنى بشؤون التعليم و التجارة.و اختار راية و خاتما لدولته، و سك عملة جزائرية عرفت باسم(المحمدية).

و كان الأمير قد جعل من مدينة معسكر عاصمة لدولته، وضم لها مرفأ أرزيو (مرسى السفن) ،ثم حولت العاصمة إلى مدينة تاقدمت ، و بعد سقوط هذه الأخيرة سنة 1841م، أنشأ الأمير عاصمته المتنقلة الزمالة، التي تشكلت من مجموعة من الخيام،ضمت ما بين خمسين و سبعين ألف نسمة من النساء والأطفال و الشيوخ و العجزة،و توفرت على مرافق هامة من مدارس،و مصحات، و مساجد،و و ورشات و مستودعات، و كان يحرسها حوالي 5000 جندي نظامي.

3.2.المرحلة الثالثة: تراجع المقاومة ونهايتها (1939-1947)

توترت العلاقة بين الأمير عبد القادر و فرنسا، إثر قيام الغزاة خلال شهر أكتوبر 1839 بتوجيه حملة بقيادة دوق أورليان Duc D'Orléans من قسنطينة إلى الجزائر عبر سطيف و اختراقهم المناطق التابعة للأمير ،فامتعض هذا الأخير من هذا الموقف،و عرض الأمر على مجلس الشورى، الذي قرر إعلان الجهاد ضد العدو،و نتيجة لذلك هاجم الجزائريون بقيادة الخليفة ابن سالم العدو في متيجة، و في مناطق أخرى من البلاد.

و في ظل هذه الظروف تم عزل (فاليهValée)(الحاكم العام للجزائر(1837-1841)، و خلفه الجنرال بيجوBugeaud (1841-1847)، الذي اتبع سياسة الأرض المحروقة ضد الشعب الجزائري عامة و مقاومة

الأمير عبد القادر خاصة، بحيث لم يتردد في حرق القرى و إبادة سكانها و تدمير المزارع، و شن هجومات سريعة على القبائل الموالية للأمير للتنكيل بها و سلب ممتلكاتها

مكنت هذه السياسة الغزاة من احتلال المدينة و مليانة و شرشال عام 1840، واستيلائهم أيضا على تاقدامت و معسكر و تازا و بوغار و سعيدة عام 1841، كما استطاعوا بقيادة الدوق دومال Duc d'Aumale (ابن الملك الفرنسي لويس فيليب) من احتلال الزمالة في 15 ماي 1843، بطاغن (جنوب قصر الشلالة)، حيث قاموا بتخريبها و نهبا، و أسر حوالي 3000 من أتباع الأمير، و سبي النساء و الأطفال.

هذه الظروف اضطرت الأمير إلى الإتجاه نحو المغرب في 1843، لعله يجد الحماية و الدعم من طرف السلطان المغربي عبد الرحمن بن هشام (1778-1859)، لاسيما و أنه حظي بتأييد شعبي مغربي منقطع النظير، إلا أن فرنسا ما لبثت و أن ضغطت على السلطان و طالبتة بالتخلي عن حماية الأمير و دعمه، و تصفية نشاط مقاومته على الحدود، و بعدما رفض السلطان في بادئ الأمر الاستجابة للطلب الفرنسي، قام أسطول هذه الأخيرة بقيادة الأمير دوق دو جوانفيل Duc de Joinville-ابن الملك لويس فيليب- بقنبلة طنجة و الصويرة خلال شهر أوت 1844، ثم شنت القوات الفرنسية بقيادة بيجو هجوما على القوات الملكية و ألحقت بها هزيمة نكراء في معركة إسلي (شمال وجدة)، التي كانت بمثابة ضربة موجعة للأمير، حيث تم على إثرها تخلى السلطان المغربي عن دعم الأمير، و قد تجسد ذلك بصفة رسمية من خلال إبرام المغرب معاهدة طنجة مع فرنسا يوم 10/9/1844، التي اعتبرت الأمير عبد القادر ((خارجا عن القانون على كل تراب المغرب و الجزائر)).

و أمام التهديدات المغربية الفرنسية التي أصبح الأمير يواجهها في التراب المغربي، عاد إلى الجزائر و حاول مواصلة المقاومة، حيث خاض معركة سيدي إبراهيم (قرب الغزوات) خلال شهر سبتمبر 1845، حقق فيها نصرا هاما على حساب القوات الفرنسية بقيادة مونتانيك Montagnac، و قاد هجومات أخرى ضد الغزاة في متيجة و التيطري و بلاد القبائل، الأمر الذي دفع بـ بيجو إلى توظيف أقصى أساليب العنف و القهر ضد السكان للحيلولة دون تقديمهم المساعدات للأمير عبد القادر و الالتفاف حوله، فتخرج بذلك موقفه أكثر بعد استسلام خليفته ابن سالم خلال شهر مارس 1847، فاضطر ر للعودة إلى المغرب، غير أن السلطان عبد الرحمان استعمل هذه المرة القوة العسكرية في مطاردة الأمير و إجباره على الانسحاب نحو الجزائر .

وفي ظل تزايد الصعوبات في وجه الأمير و على رأسها التحالف المغربي الفرنسي المستهدف له، و صعوبة تأييد الجزائريين له و دعمه، إضافة إلى استنزاف إمكانياته القتالية، دفع به إلى إجراء اتصالات مع القائد الفرنسي لاموريسيير Lamoricière خلال شهر ديسمبر 1947 طالبا منه الأمان، " حرية مغادرة الجزائر

نحو الإسكندرية أو عكا، و احترام الدين الإسلامي، و منح أنصاره حرية البقاء في الجزائر أو مغادرتها"، ثم سلم نفسه بعدما استجاب القائد الفرنسي لشروطه بموجب اتفاق 23 ديسمبر 1847، إلا أن الفرنسيين نقضوا عهدهم هذا بعدما عاملوا الأمير أسيرا و نقلوه إلى فرنسا خلال شهر جانفي 1848، حيث بقي هناك سجيناً و لم يطلق سراحه إلا في سنة 1852، بعد ذلك فضل هذا الأخير التوجه في سنة 1856 إلى دمشق للاستقرار بها، التي أكمل بقية حياته بها لغاية وفاته 1883.

المراجع الأساسية

- 1- محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، ط2، دار اليقظة العربية بيروت 1964
- 2- أديب حرب، التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر الجزائري 1808-1847، ج2، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1983
- 3- العقيد بوروينة عبد القادر، "الأمير عبد القادر ((القائد العسكري)) (1832-1847)"، مجلة الدراسات العسكرية، الجزائر، جانفي، 2020
- 4- المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، تاريخ الجزائر (1830-1962)، (قرص مضغوط)، وزارة المجاهدين، الجزائر 2002
- 5- بوعلام بن حمودة، الثورة الجزائرية، ثورة أول نوفمبر 1954، معالمها الأساسية، دار النعمان للطباعة و النشر، الجزائر، 2012
- 6- بوعزيز يحي، مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، عالم المعرفة للنشر و التوزيع الجزائر 2009
- 7- بلال بشير، تاريخ الجزائر المعاصر (1830-1989)، ج1، دار المعرفة، الجزائر، 2006
- 8- خيثر عبد النور و آخرون، أسس و منطلقات الحركة الوطنية الجزائرية (1830-1954)، منشورات المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، (د.ت)

- 9-رامي سيد أحمد ،قراءة في أسباب فشل المقاومات الشعبية في طرد الإحتلال الفرنسي من الجزائر ، مجلة قضايا تاريخية ،العدد7،المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة ، الجزائر، 2017
- 10-زوزو عبد الحميد ، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر-لمعاصر 1830-1900،ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007
- 11-سعد الله أبو القاسم،الحركة الوطنية الجزائرية(1830-1900)، ج1،دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1992
- 12-عبد الهادي حسين،الإدارة في دولة الأمير عبد القادر، الإستراتيجية والإنجازات(1832-1874)، مجلة القرطاس، ع7/جانفي، 2018
- 13-مقلاتي عبد الله ،المرجع في تاريخ الجزائر المعاصر(1830-1954)،ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2014
- 14-نجاوي بوعلام ،الإستعمار الفرنسي في الجزائر زمن المجازر(حقبة التحريق)،موفم للنشر، الجزائر، 2013
- 15-يحي بوعزيز،ثورات الجزائر خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، 1996
- 16-خيثر عبد النور و آخرون، أسس ومنطلقات الحركة الوطنية الجزائرية(1830-1954)، منشورات المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر1954، الجزائر،(دون تاريخ نشر)